الفصل الثالث

الأصوات الصامتة

الأصوات الصامتة consonants ، وتسمى بالحروف عند علماء العربية تختلف من لغة إلى أخرى ، ولكن درجة الاختلاف هنا أقل من درجة الاختلاف بين اللغات فى حالة الحركات .

وقد جرت عادة العلماء على تقسيم الأصوات الصامتة إلى أصناف بقصد التعرف على طبيعتها وخواصها ، وتسهيلا للدارسين وتبسيطًا للدراسة .

وتختلف أسس التقسيم باختلاف وجهات النظر وباختلاف الغرض . والقاعدة العامة على كل حال هى تقسيم الأصوات الصامتة إلى ثلاثة تقسيمات رئيسية باعتبارات ثلاثة :

التقسيم الأول :

تقسيم الأصوات الصامتة إلى مجموعات بحسب وضع الأوتار الصوتية ، أى من حيث ذبذبة هذه الأوتار أو عدم ذبذبتها أثناء النطق .

١ ــ قد ينفرج الوتران الصوتيان بعضهما عن بعض أثناء مرور الهواء من الرئتين بحيث يسمحان له بالخروج دون أن يقابله أى اعتراض فى طريقه ، ومن ثم لا يتذبذب الوتران الصوتيان . وفى هذه الحالة يحدث ما يسمى بالهمس . والصوت اللغوى الذى ينطق فى هذه الحالة يسمى الصوت المهموس voiceless . فالصوت المهموس إذن هو الصوت الذى لا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به .

والأصوات المهموسة فى اللغة العربية كما ينطقها مجيدو القراءات اليوم أو كما ينطقها المختصون فى اللغة العربية اليوم هى : ت ث ح خ س ش ص ط ف ق ك ه = (١٢) .

٢ ــ قد يقترب الوتران الصوتيان بعضهما من بعض أثناء مرور الهواء وأثناء النطق ، فيضيق الفراغ بينهما بحيث يسمح بمرور الهواء ولكن مع إحداث اهتزازات وذبذبات منتظمة لهذه الأوتار . وفى هذه الحالة يحدث ما يسمى بالجهر ، ويسمى الصوت اللغوى

المنطوق حينئذ بالصوت المجهور Voiced . فالصوت المجهور إذن هو الصوت الذى تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به .

والأصوات الصامتة المجهورة فى اللغة العربية كما ننطقها اليوم هى : ب ج د ذ ر ز ض ظ ع غ ل م ن والواو نحو (فى ولد ، وحوض) والياء (فى نحو يترك بيت) = (١٥) .

وقد أضاف علماء العربية الطاء والقاف إلى الأصوات المجهورة وأخرجوها من الأصوات المهموسة . وهذا الذى قالوا لا يوافق نطقنا الحالى لهذين الصوتين (انظر ص ١٠٢ : ١٠٩ وما بعدهما) .

٣ــ قد ينطبق الوتران انطباقاً تاماً فلا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق مدة هذا الانطباق ومن ثم ينقطع النفس ، ثم يحدث أن ينفرج هذان الوتران ، فيخرج صوت انفجارى نتيجة لاندفاع الهواء الذى كان محبوساً حال الانطباق التام . هذا الصوت هو همزة القطع . فهمزة القطع العربية إذن صوت صامت لا هو بالمهموس ولا بالمجهور .

وقد عد بعضهم الهمزة صوتاً مهموساً على حين قرر علماء العربية القدامى أنها صوت مجهور ، ولكنا نأخذ بالرأى الذى سجلناه سابقاً وهو كونها صوتاً لا بالمجهور ولا بالمهموس ، (انظر تفصيل القول فى ذلك ص ١١٢ وما بعدها) .

والملاحظ أن لغوى العرب قد تكلموا عن ظاهرتى الجهر والهمس ، كما تكلموا عن المجهور والمهموس من الأصوات . ولكنهم فى مناقشتهم لم يشيروا إلى الأوتار الصوتية . ولم يعتمدوا على أوضاعها فى تحديد الجهر والهمس . وإنما قدموا لهاتين الظاهرتين تعريفات تعتمد فى الأساس ــ على ما نفهم ــ على كيفية مرور الهواء فى جهاز النطق . وهى تعريفات ــ على كل حال ــ تتسم بالصعوبة والتعقيد إلى حد أنه ليس من السهل التعرف بدقة على مقاصدهم .

ولكنهم بالرغم من ذلك حين انتقلوا إلى حصر المجهور والمهموس من الأصوات اتفقوا مع ما قررناه سابقاً إلا فى الطاء والقاف والهمزة ، حيث حكموا على هذه الثلاثة بأنها مجهورة على حين أن الصوتين الأولين مهموسان بحسب نطقنا الحالى والهمزة لا مهموسة ولا مجهورة ، كما أشرنا إلى ذلك .

التقسيم الثانى :

تقسم الأصوات الصامتة كذلك إلى مجموعات بحسب مواضع النطق أو مخارجه . وسوف نشير إلى تلك المخارج التى تخرج منها الأصوات العربية فقط . أو بعبارة أخرى إننا سنذكر هنا مواضع النطق الرئيسية للأصوات العربية كما ينطقها اليوم المختصون فى اللغة العربية من أبناء جمهورية مصر العربية . ويجب أن يكون مفهوماً من البداية أن الإشارة إلى « موضع النطق » بصيغة الفرد لا تعنى أن موضع النطق عضو واحد ، أو أن الصوت المعين صدر عن عضو واحد . فقد يشترك عضوان أو أكثر فى إصدار الصوت الواحد ، وقد يكون موضع النطق « هو نقطة التقاء عضو بآخر » . فحين نقول مثلا « إن الراء » صوت لثوى ليس معناه أن اللثة وحدها هى موضع النطق ، فاللسان شريك اللثة فى هذه الحالة ؛ إذ أن طرفه يلتقى باللثة حين النطق بهذا الصوت . فالتقاؤهما إذن على هيئة خاصة هو الذى يحدد النطق .

وفيما يلى بيان الأنواع الرئيسية للأصوات العربية حسب مواضع النطق المختلفة :

١ ــ أصوات شفوية : وهى الباء والميم . وكثيراً ما يشار إلى الواو أيضاً (فى نحو وعد) بأنها شفوية ، وهذا ما سار عليه علماء العربية فى القديم. هذا الوصف ليس خطأ لأن للشفتين دخلا كبيراً فى نطق هذا الصوت . ولكن الوصف الأدق أن يقال : إن الواو من أقصى الحنك ؛ إذ عند النطق بها يقترب اللسان من هذا الجزء من الحنك .

٢ ــ أسنانية شفوية وهى الفاء .

٣ ــ أسنانية أو أصوات ما بين الأسنان وهى الثاء والذال والظاء .

٤ ــ أسنانية ــ لثوية وهى التاء والدال والضاد والطاء واللام والنون .

٥ ــ لثوية وهى الراء والزاى والسين والصاد .

ويجب أن نلاحظ أن مخرجى النطق ٤ و٥ متقاربان جداً ، لدرجة يصعب معها أحياناً التفريق بينهما . ومما يفسر هذا التقارب ما سلكه بعض علماء الأصوات من ذكر الزاى والسين والصاد على أنها من مخرج التاء والدال وأخواتهما. ولكنا نشعر ــ بحسب نطقنا الشخصى ــ أن هذه الأصوات أدخل قليلا فى النطق والموضع من أصوات المجموعة رقم (٤).

كما نحس كذلك بأن صوت الراء أدخل قليلا من حيث المخرج إذا قورنت بأصوات هذه المجموعة نفسها .

٦ ــ أصوات لثوية ــ حنكية وهى الجيم الفصيحة والشين .

٧ ــ أصوات وسط الحنك وهى الياء .

ويجب أن نعلم أن بين الياء وبين الجيم والشين قربًا شديداً فى المخرج حتى إن بعض الدارسين سمى هذه الأصوات الثلاثة « أصوات وسط الحنك» . وهذه الأصوات الثلاثة يسميها العرب الأصوات الشجرية « نسبة إلى شجر الفم » .

٧ ــ أصوات أقصى الحنك ، وهى الخاء والغين والكاف والواو (انظر المجموعة ا)

٩ ــ أصوات لهوية وهى القاف ، كما ننطقها اليوم فى اللغة الفصيحة . لا فى اللهجات العامية .

١٠ ــ أصوات حلقية وهى العين والحاء .

١١ ــ أصوات حنجرية وهى الهمزة والهاء .

هذه هى الأنواع الرئيسية للأصوات العربية الصامتة . وما ذكرناه هنا يشير بوضوح إلى أن المخارج أو مواضع النطق أحد عشر . أما علماء العربية فأكثرهم على أنها ستة عشر مخرجًا : منها مخرجان للنون ، وبهذا تكون أنواع الأصوات عندهم ستة عشر نوعًا كذلك .

وقد تكلم الكثيرون منهم عن هذه المخارج ، منهم الخليل بن أحمد وسيبويه وابن جنى وغيرهم . ونحن نلاحظ أن هناك اضطرابًا واضحًا فى كلام الخليل ، عند مناقشة هذه النقطة . وبالرغم من الدقة النسبية فى ترتيب سيبويه للأصوات وتوزيعها على مخارجها فنحن نفضل ما أتى به ابن جنى فى هذا المقام لتفوقه على سيبويه فى هذه المسألة ، بالإضافة إلى أن ما أتى به سيبويه هو فى حقيقة الأمر الأساس الذى بنى عليه ابن جنى عمله فى هذا الشأن .

أما مخارج الأصوات العربية كما ذكرها ابن جنى فهى كما يلى : يقول (سر صناعة الإعراب جـ ١ ، ص ٥٢ ــ ٥٣) :

« اعلم أن مخارج هذه الحروف ستة عشر . ثلاثة منها فى الحلق :

١ ــ فأولها من أسفله وأقصاه مخرج الهمزة والألف والهاء .

٢ ــ ومن وسط الحلق مخرج العين والحاء .

٣ – ومما فوق ذلك مع أول الفم مخرج الغين والخاء .

وواضح مما تقدم أن كل الأصوات المذكورة (١ و ٢ و ٣) أصوات حلقية عنده ولكنها تختلف اختلافًا ما من حيث أقصى الحلق ووسطه وأدناه .

٤ – ومما فوق ذلك من أقصى اللسان مخرج القاف .

وبعبارة أخرى يمكن القول بأن « القاف » عن ابن جنى مخرجها أقصى الحنك ، ولا يمكن – بناء على هذا الوصف – عدها لهوية ، إذ هو وضعها بعد الغين والخاء .

٥ – ومن أسفل من ذلك إلى وأدنى إلى مقدم الفم مخرج الكاف .

فكأنها هى الأخرى – عند ابن جنى – من أقصى الحنك أيضًا ، ولكنها تبعد عنها قليلا إلى الأمام .

٦ – ومن وسط اللسان ، بينه ومن وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء .

وهذا واضح فى أن هذه الأصوات الثلاثة هى أصوات وسط الحنك وهذا يوافق ما يراه كثير من المحدثين اليوم .

٧ – ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد ، « إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر » (وفى رواية أو من كليهما) .

فكأن الضاد عنده قريبة من وسط الحنك ، أو هى أقرب أن تكون لثوية حنكية ، ولكن مع السماح بمرور الهواء من أحد جانبى الفم أو منهما معًا .

٨ – ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ، من بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى ، مما فوق الضاحك والناب والرباعية والثنية ، مخرج اللام .

وهذا يوافق ما يمكن أن يطلق عليه « صوت لثوى – حنكى أو لثوى فقط » ولكن مع صفات أخرى تنتج عن مرور الهواء من جانبى الفم .

٩ – ومن طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا مخرج النون .

فهو إذن صوت أسنانى – لثوى أو لثوى فقط ، وهذا يوافق ما جرى عليه أكثر علماء الأصوات . ومعنى هذا أن اللام والنون متقاربان فى المخرج أو هما من مخرج واحد بضرب من التوسع .

١٠ – ومن مخرج النون غير أنه أدخل فى ظهر اللسان قليلا – لانحرافه إلى اللام – مخرج الراء . وهذا يوافق ما نعبر عنه اليوم بأنه صوت لثوى والواقع أن هناك قربًا شديداً

بين اللام والنون والراء . حتى إن بعض المحدثين عد هذه الأصوات أصواتًا لثوية[١] .

١١ — ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والثاء . ومعنى ذلك أنها أصوات أسنانية — لثوية بالتعبير الحديث . وهذا وصف دقيق يناسب نطقنا الحالى لهذه الأصوات .

١٢ — ومما بين الثنايا وطرف اللسان مخرج الصاد والزاى والسين . وهذا الوصف يقتضى أن تكون هذه الأصوات « سنية » dental إذ يتم الالتقاء الأساسى فى نظر ابن جنى بين طرف اللسان والأسنان[٢] .

والذى نشعر به نحن بحسب نطقنا الحاضر لهذه الأصوات ، أنها لثوية وهى بهذا الاعتبار يجب أن تكون سابقة على المجموعة (١١) لا تالية لها ، وأن تكوّن مع الراء مجموعة الأصوات اللثوية . على أنه فى حقيقة الأمر ليس هناك فصل واضح بين منطقتى الأصوات (١١) و (١٢) كما يتبين ذلك من كلمات ابن جنى نفسه .

١٣ — ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا (العليا والسفلى) مخرج الظاء والذال والثاء . وهذا يوافق ما وصلنا إليه الآن . ومعناه أنها أصوات أسنانية أو مما بين الأسنان .

١٤ — ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء . وهذا يوافق المصطلح الذى أطلقناه على هذا الصوت ، وهو أنه صوت أسنانى شفوى .

١٥ — ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو . وهذا واضح . فهى الأصوات التى سميناها « بالأصوات الشفوية » ، مع فرق واحد . وهو أن الواو صوت يمكن عده كذلك من أصوات أقصى الحنك فالأدق إذن ضم هذه الصفة إلى الحكم عليها شفوية .

١٦ — ومن الحياشيم مخرج النون الخفيفة ويقال لها الخفيفة ، وهى الساكنة . وهذا مخرج إضافى ذكره ابن جنى (وغيره) لنوع من النون . ويمكن الاستغناء عن هذا المخرج

---

(١) يجب أن نلاحظ أن ابن جنى قدم هنا النون على الراء ، بالرغم من أنه آخرها عن الراء فى ترتيب أبجديته الصوتية (ص ١١٨) وهذا السلوك الأخير أدق إذ الوصف المذكور هنا يناسب أن تكون النون بعد الراء لا قبلها .

(٢) هذه الأصوات التى سميناها « سنية » هنا تختلف فى المخرج عن تلك الأصوات التى أطلقنا عليها المصطلح « أسنانية » (بصيغة الجمع) فى تقسيمنا السابق للأصوات (رقم (٣) ص ٨٩) . فالأصوات الأسنانية — أو أصوات بين الأسنان — ما نعنى بها تلك الأصوات التى يقع طرف اللسان حال النطق بها بين أطراف الأسنان العليا والسفلى ، وهذه الأصوات هى الثاء والذال والظاء .

والاكتفاء بالمخرج رقم (٩) فى تقسيم ابن جنى . فهذا المخرج الأخير يعد مخرج النوع الرئيسى للنون[1] .

بهذا نكون سجلنا مواضع النطق للأصوات العربية بحسب نطقنا للفصحى المعاصرة فى جمهورية مصر العربية ، كما سجلنا مواضع أصوات العربية كما ذكرها ابن جنى بحسب تذوقه هو لهذه الأصوات .

وربما يكون من المفيد بعد ذلك أن نرتب هذه الأصوات ترتيبًا مخرجيًّا طبقًا لهاتين الطريقتين ، فى صورة أبجدية صوتية حتى يتبين الفرق بوضوح بين طريقتنا وطريقتهم .

ونلاحظ أن ابن جنى وغيره قد تأثروا بطريقة الخليل بن أحمد فرتبوا الأصوات (والمخارج كذلك) ترتيبًا يخالف المألوف الآن . إن ترتيبهم ترتيب تصاعدى ، أى أنه يبدأ من أقصى الحلق إلى الشفتين . والترتيب الشائع الآن (وهو ما لاحظنا عند بيان مواضع النطق) يبدأ من الشفتين راجعًا إلى الخلف حتى الحنجرة .

على أنه من السهل علينا أن نعكس الترتيب الذى اتبعناه سابقًا . فترتيب الأصوات المذكورة من قبل ترتيبًا تصاعديًّا ، حتى نسير مع ترتيب العرب ، تسهيلا للمقارنة بين ما رأيناه من ترتيب الأصوات العربية وبين ترتيبهم . ولنرى إلى أى حد يكون الاختلاف أو الاتفاق بيننا وبينهم . محاولين بعد ذلك أن نفسر الخلاف كلما وجد ذلك .

وسنراعى فى الترتيب الجديد أن نذكر كل مجموعة من الأصوات المتحدة الموضع والمخرج على حدة . وسوف نشير إلى ذلك بوضع شرطة [—] بين كل مجموعة وأخرى . أما أفراد المجموعة الواحدة فسوف نضع بين كل صوت منها وبين الآخر واو العطف هكذا :

الهمزة والهاء — العين والحاء — القاف — الخاء والغين والكاف والواو — الياء — الجيم والشين — الراء والزاى والسين والصاد — التاء والدال والضاد والطاء واللام والنون — الثاء والظاء — الفاء — الباء والميم (والواو) .

أما ترتيب ابن جنى لهذه الأصوات بحسب المخارج ترتيبًا تصاعديًّا — أى بادئًا من

---

(١) جعل بعضهم المخارج سبعة عشر مخرجا . والمخرج السابع عشر عند هؤلاء هو الجوف . وأصواته عندهم هى حروف المد (الألف والواو والياء) . والواقع أن هذا المخرج لا محل له هنا ؛ لأنه خاص بالحركات (حروف المد ، حركات طويلة) ونحن فى معرض الكلام على مخارج الأصوات الصامتة لا الحركات .

أقصى الحلق إلى الشفتين — فيتبين ذلك من الترتيب الذى جاء به هذا العالم فى كتابه « سر صناعة الإعراب » (جـ ١ ص ٥٠) وهو كما يلى :

الهمزة والألف والهاء والعين والحاء والغين والخاء — القاف — الكاف — الجيم والشين والياء — الضاد — اللام — الراء — النون[1] — الطاء والدال — والتاء — الصاد والزاى والسين — الظاء والذال والثاء — الفاء — الباء والميم والواو .

ويحين الوقت الآن لعقد مقارنة موجزة بين الترتيب الذى اخترناه للأصوات العربية من حيث مواضع نطقها وبين ذلك الترتيب الذى وضعه ابن جنى لها . وبهذا نستطيع أن نتبين إلى أى حد وفق هذا العالم الجليل فى هذا الشأن . على أنه من الواجب أن ندرك أنه من المحتمل أن يكون قد حدث تطور من نوع ما للأصوات العربية من حيث مواضع نطقها منذ زمن ابن جنى إلى وقتنا الحاضر . فقد يفسر الخلاف بيننا وبينه أحيانًا على أنه راجع إلى هذا السبب ، وهذا احتمال على كل حال . فليست لدينا أدلة يقينية تثبت أو تنفى هذا التطور . إن التطور فى الأصوات بالذات لا يتأكد إلا بالاستماع الفعلى للأصوات ، وأنى لنا ذلك وليست لدينا تسجيلات (أو حتى وصف علمى دقيق) لهذه الأصوات . ولكنا لا نهمل فكرة التطور هذه بحال من الأحوال ، اعتماداً على ما نعرفه من طبيعة الكلام الإنسانى وقابليته للتطور والتغير من عصر إلى عصر ، واعتماداً على الشاهد الملموس الآن فى اللهجات العامية . ففى هذه اللهجات تطورات صوتية واضحة إذا قيست بما يقابلها فى أصوات اللغة الفصيحة الحالية .

إن نظرة فاحصة دقيقة إلى ذلك الترتيب الذى وضعناه للأصوات ووصفنا لمخارجها وإلى ما فعله ابن جنى فى هذا الشأن لتخرج بنا إلى هذه الخطوط العريضة :

١ — مجال الاتفاق بيننا وبينه أوسع من مجال الخلاف .

٢ — كثير من نقاط الخلاف يمكن أن نغض النظر عنها وأن نهملها ، وذلك لشدة التقارب والتداخل بين مخارج النطق . فليس هناك فى الواقع حدود فاصلة فصلا تامًّا بين

---

(١) يلاحظ أن ابن جنى هنا قد ذكر النون بعد الراء ، بعكس ما فعل عند بيان المخارج (ص ٩١) إذ وضعها قبل الراء ، بالرغم من وصفه لمخرجها هناك وصفاً يشعر بأنها أدنى إلى الأمام من الراء ، وهو ما يناسب الترتيب المذكور هنا .

بعض هذه المخارج . ومن ثم فإنه من الجائز أن تنسب مجموعة من الأصوات إلى مخرج معين، وينسبها باحث آخر إلى مخرج آخر قريب منه أو متصل به ومتداخل معه . أو ربما يرجع الخلاف بيننا وبينه (أو بين غيره) إلى الملاحظة الذاتية والخبرة الشخصية . فقد تنطق صوتًا ما من مخرج معين وينطق شخص آخر هذا الصوت نفسه من موضع قريب منه ، وذلك بسبب الاختلافات الفردية فى الخبرة الصوتية (واللغوية بوجه عام) بين المتكلمين .

٣ — أما وصف ابن جنى للمخارج بالصورة التى سجلها فى كتابه وترتيبه لهذه المخارج فهو يدل على قوة ملاحظته وذكائه النادر . والحق أن النتائج التى وصل إليها هذا العالم فى هذا الوقت الذى كان يعيش فيه لتعد مفخرة له ولفكرى العرب فى هذا الموضوع . ومما يؤكد براعتهم ونبوغهم فى هذا العلم أنهم قد توصلوا إلى ما توصلوا إليه من حقائق مدهشة دون الاستعانة بأية أجهزة أو آلات تعينهم على البحث والدراسة كما نفعل نحن اليوم .

وليس معنى ذلك على كل حال أن كلام هؤلاء العلماء مسلم به جملة وتفصيلا ؛ بل هناك نقاط جديرة بالمناقشة والتوضيح ، وهى أهم نقاط الخلاف بيننا وبينهم . وسوف يتضح ذلك فيما يلى :

١ — الحكم بأن الهمزة هى أول الأصوات العربية مخرجًا حكم سليم ولا غبار عليه . أما أن الواو هى آخر الأصوات مخرجًا ، أو بعبارة أخرى أما عدّ الواو شفوية فهذا قول يحتاج إلى تكميلة ؛ إذ البحوث الحديثة تثبت أن الواو (فى نحو ولد) تخرج من أقصى الحنك أى من منطقة الكاف أو ما يقرب منها ، مع اتخاذ الشفتين وضعًا معينًا . ولكن ذلك لا يكفى مسوغًا لعدها شفوية . وإن أردنا أن نجمع بين هاتين الجهتين يمكن القول بأن الواو حنكية — قصية (أى من أقصى الحنك) شفرية ، وربما يكون وضعها مع الكاف وأخواتها أدق من وضعها مع الباء والميم ، بالرغم من أن بعض المحدثين من علماء الأصوات قد اتفقوا مع ابن جنى فى عد الواو شفوية .

٢ — وضع ابن جنى صوت القاف بعد صوتى الغين والخاء ، بعكس ما فعلنا نحن ، إذ هى عندنا سابقة لا تالية لهما . وذلك بالطبع له تفسير خاص ، سنأتى به فى مكانه (انظر ص ١٠٩) .

٣ — مكان الضاد عند ابن جنى بعد الياء وقبل اللام أو هى من مخرجها عنده . أما

الضاد كما ننطقها اليوم فهى فى الترتيب مع التاء والدال والطاء[1] .

٤ ــ يرى ابن جنى أن الصاد والزاى والسين تالية للطاء والدال والتاء . أما نحن فنشعر بالعكس ونحس بأنها سابقة على هذه الأصوات وليست تالية لها من حيث المخرج . والملاحظة فى نطقنا الحالى للزاى والسين والصاد هو وضع طرف اللسان خلف الأسنان العليا مع التقاء مقدم اللسان باللثة التقاء خفيفًا من شأنه أن يحدث الاحتكاك الذى نسمعه عند نطقها .

ومعنى هذا أن هذه الأصوات « سنية » لو نظرنا إلى الوضع الأول . ولكنها لثوية بالنسبة إلى الوضع الثانى . ومعناه أيضًا صحة تسميتها أصواتًا أسنانية ــ لثوية بالاعتبارين معًا . وهذا ما سلكه بالفعل بعض الدارسين المحدثين ، حيث ضموها إلى الطاء والدال والتاء والضاد . ويبدو أن ابن جنى ركز نظره على التقاء طرف اللسان بالأسنان وأهمل التقاء مقدم اللسان باللثة . وهو الالتقاء الذى نتج عنه الاحتكاك الذى يعد خاصة مهمة من خواص هذه الأصوات الثلاثة . وقد سوّغ لنا هذا عدها أصواتًا لثوية ووضعها مع الراء فى مجموعة واحدة .

٥ ــ أما أظهر مواضع الخلاف بيننا وبينه فيتمثل فى ذكره للألف وعدم ذكرنا لها فى الجدول السابق . أما نحن فلم نذكر هذا الصوت فى أبجديتنا لأن الألف (بوصفه ألف مد) يعد حركة فى كل مواضعه فى اللغة العربية ، وهذه الحركة هى الفتحة الطويلة . وعلى هذا لا مكان لها فى هذه الأبجدية ، لأنها أبجدية الأصوات الصامتة ، ولا يعترض علينا بذكر الياء والواو فى هذه الأبجدية ، لأن الواو والياء ــ كما قدمنا ــ لهما جانبان . الجانب الأول كونهما حركتين هما الضمة والكسرة الطويلتان . والجانب الثانى كونهما من الأصوات الصامتة . وهما مذكوران فى أبجدية ابن جنى بهذا الوصف الأخير ، بدليل وضع الياء مع الجيم والشين ، وهذا ما لا يمكن عمله بالنسبة للياء المدية (أى الكسرة الطويلة) .

وعلى فرض التجاوز عن الخلط بين الأصوات الصامتة والحركات عند ابن جنى والتسليم بجواز وضعها فى الأبجدية التى ذكرها ، يبقى الاعتراض المهم وهو وضعها عقب الهمزة أو معها . فالهمزة ــ كما عرفت ــ صوت حنجرى . أما الألف فليس مخرجها الحنجرة أو الحلق ، كما فهم ابن جنى ، وإنما هى حركة يتحدد موضع نطقها بوضع اللسان وضعًا

---

(١) الضاد العربية من حيث مخرجها وصفاتها قصة طويلة ، سوف نوجزها فيما بعد ص ١٠٤ .

معيناً فى الفم تجاه الحنك الأعلى . هذا الوضع هو . كما سنعرف فيما بعد - أن يستقر اللسان فى قاع الفم بحيث يكون - أو يكاد يكون - مستوياً . والحركات كلها فى الواقع تحدد - بطريق وضع الفم تجاه الحنك ، وبدرجة ارتفاع اللسان أو هبوطه .

ويبدو أن ابن جنى قد غفل عن هذه الحقيقة وهى وضع اللسان وحركته تجاه الحنك الأعلى ودرجة ارتفاعه وهبوطه . وركز اهتمامه على مكان آخر سماه هو أقصى الحلق ، يمر الهواء من خلاله أثناء النطق بالألف . والواقع أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالألف بل تشترك فيها الأصوات جميعاً ، وهى مرور الهواء من الرئتين مارًّا بالحنجرة والحلق والفم ولكنه يتعدل ويتكيف بطريق ما فى مكان ما حسب كل صوت من الأصوات المختلفة فقد يقف فى الحنجرة ثم ينطلق فجأة . فتكون الهمزة . وقد يكون التعديل فى الحلق فتخرج الأصوات الحلقية ، وقد يكون فى الفم فتخرج أصوات كثيرة . منها الحركات ومن ضمنها الألف بالطبع .

ويعتذر بعض الباحثين المحدثين لابن جنى ويفسر كلامه على أنه ضرب من الترادف يقول هؤلاء الباحثون : إن ذكر الألف بعد الهمزة من باب الترادف . فكأنه قال : الهمزة التى هى ألف . وأغلب الظن أن فى هذا التفسير ضرباً من التسامح ، إذ يناقضه وجود حرف العطف (وهو الواو) بين الهمزة والألف فى الترتيب الذى ساقه ابن جنى لأبجديته . والمعروف أن العطف يقتضى المغايرة . أضف إلى هذا أن ابن جنى كثيراً ما يتعرض للألف فى معرض الكلام على حروف المد . ونشعر من كلامه هناك بأنه يعرف جيداً الفرق بين هذه الحروف بوصفها حركات وبين الأصوات الصامتة . فبقى إذن الاعتراض على حاله ، وهو أن ابن جنى لم يكن دقيقاً فى وضع الألف فى هذه الأبجدية . لأنها أبجدية صوامت ، كما خانه الحظ فى تحديد مخرجها .

والحق أن موضوع الهمزة والألف فى العربية يشكل صعوبة ظاهرة فى الدرس اللغوى عندهم ، وقد خلط العلماء بينهما خلطاً واضحاً ، وأتوا فيهما بمناقشات تتسم بالغموض وعدم الإدراك الحقيقى لطبيعة هذين الصوتين .

٦ - أما ترتيب بقية الأصوات فى أبجدية ابن جنى ، فهو ترتيب معقول ومقبول ؛ بل إن بعضها - كما فى حالة الفاء والباء والميم - مثلا - قد بلغ غاية فى الدقة . ولكن الذى يعكر الصفو على ابن جنى فى هذا الترتيب السابق هو نسبة بعض هذه الأصوات إلى مخارج

تختلف معه فيها . وسوف نقوم بتوضيح نقاط الخلاف فى هذا الأمر وغيره عند الكلام على الأصوات المختلفة ، كل فى موضعه .

التقسيم الثالث :

هذا هو التقسيم الثالث والأخير للأصوات الصامتة . وهو تقسيم مبنى على حالة ممر الهواء عند مواضع النطق . أو بعبارة أخرى . إننا سننظر فى هذه الأصوات مراعين ما يحدث لهذا الممر من عوائق أو موانع تمنع خروج الهواء منعًا تامًا أو منعًا جزئيًا أو ما يحدث له من تغير أو انحراف فيخرج الهواء من جانبى الفم أو من الأنف مثلا .

وبهذه النظرة نحصل على المجموعات الرئيسية التالية للأصوات الصامتة :

١ ــ الأصوات الانفجارية وتسمى الوقفات أيضًا ، وهى : الباء والتاء والدال والضاد والطاء والكاف والقاف والهمزة = ٨ .

٢ ــ الأصوات الاحتكاكية . وهى : الفاء والثاء والذال والظاء والزاى والسين والصاد والشين والخاء والغين والحاء والعين والهاء .

٣ ــ صوت انفجارى ـ احتكاكى أو مركب وهو الجيم = ١ .

٤ ــ صوت مكرر وهو الراء = ١ .

٥ ــ صوت جانبى وهو اللام = ٢ .

٦ ــ أنصاف الحركات وتتمثل فى الواو والياء = ٢ .

وللعرب القدامى تقسيم للأصوات يقابل تقسيمنا هذا الذى أوردناه هنا . وهم يقسمونها من هذه الناحية ــ إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ ــ الأصوات الشديدة . وهى ما تقابل تلك الأصوات التى سميناها هنا انفجارية أو وقفات . وقد عدوها ثمانية وهى : الباء والتاء والدال والطاء والجيم والكاف والهمزة ، وقد جمعوها فى قولهم « أجدت طبقك » .

فإذا قارنا أصواتنا الانفجارية (أو الوقفات) بأصواتهم الشديدة ، لاحظنا فرقين اثنين .

أولاً : ذكرهم للجيم ضمن الأصوات الشديدة . على حين لم نعدها نحن صوتًا انفجاريًا (أى شديداً) .

ثانياً : عدم ذكرهم للضاد ضمن الأصوات الشديدة . أما نحن فقد حكمنا عليها

بأنها انفجارية وذلك بحسب نطقنا الحالى لها (انظر ص ١٠٤) .

٢ ــ الأصوات الرخوة . وهى عندهم تقابل الأصوات الاحتكاكية عندنا . وهذه الأصوات ــ كما ذكروها هم ــ هى : الفاء والثاء والذال والظاء والراى والسين والشين والصاد والضاد والخاء والغين والحاء والهاء = (١٣) .

٣ ــ الأصوات المتوسطة ، وهى بقية الأصوات العربية ، وهى تضم أنواعاً مختلفة فى الصفات والسمات ، وجمعوها فى قولهم « لم نُرَع » ، وزاد بعضهم على هذه الأصوات الواو والياء والألف وجمعوا الكل فى قولهم « لم يروعنا » ، أو « لم يُروِّعنا » أو « لم يَرْعونا »

وهكذا نرى أن الأصوات المتوسطة عندهم تنتظم عدداً من الأصوات التى تنتمى إلى مجموعات مختلفة من التقسيم السابق ، بل إنها تضم حركات كذلك كالألف وهى فتحة طويلة ، كما هو معروف .

ويقصدون بالأصوات المتوسطة أنها أصوات بين الشديدة والرخوة ، وكان من الأولى أن يفسروا التوسط بما ليس شدة ولا رخاوة ، كما سيتبين لنا ذلك فيما بعد .

وهذه عبارة ابن جنى المتعلقة بهذا التقسيم الثلاثى الذى اختاره علماء العربية لأصوات لغتهم :

« وللحروف انقسام آخر إلى الشدة والرخاوة وما بينهما . فالشديدة ثمانية أحرف ، وهى : الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والدال والتاء والباء ، وتجمعها فى اللفظ (أجدت أو طبقك) و (أجدك طبقت) . والحروف التى بين الشديدة والرخوة ثمانية أيضاً وهى : الألف والعين والياء[1] واللام والنون والراء والميم والواو . ويجمعها فى اللفظ (لم يروِّعنا) وإن شئت قلت (لم يروِّعنا) وإن شئت قلت (لم يرعونا) . وما سوى هذه الحروف والتى قبلها هى الرخوة »[2] .

---

(١) ذكر الياء هنا بهذا الترتيب ــ أى كونها بعد العين وقبل اللام ــ بأن المقصود بها الياء التى صيناء نصف حركة ، لا ياء المد ، لأن ياء المد لا يناسبها هذا الموقع فيما لو نظرنا إليها من حيث موضع النطق . وربما ينطبق هذا الذى نقوله على الواو كذلك .

(٢) سر صناعة الإعراب لابن جنى ، ج ١ ص ٦٩ ــ ٧٠ .